تفسير سورة المزمل

جزء تبارك والتعليق على تفسير السعدي

- رحمه الله -

لفضيلة الشيخ /

أ.د: سُلَيْمَان الرحيلي

- حفظه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وَبَرَكَاتُهُ،الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله سيد ولد آدم أجمعين -صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا-، **أما بعد:**

فمستعينين بالله -عزَّ وجلَّ- نشرع في درس التفسير لشهر رمضان لهذا العام ستة وأربعين بعد الأربعمائة والألف من هجرة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم؛ حيث نكمل تفسير سور [جزء تبارك] علىٰ الطريقة التي عهدتموها؛ حيث نقرأ مقطعًا من السورة، ثم نفسّره تفسيرًا إجماليًا، إيمانيًا، موضوعيًا، ثم نقرأ تفسير السعدي -رحمه الله عزَّ وجلَّ- ونعلِّق عليه، ثم في ختام السورة نذكر شيئًا من فوائد السورة الكبرىٰ، وحكمها العظمىٰ.

فنبدأ مستعينين بربنا -سبحانه وتعالىٰ-، فيتفضل الابن نور الدين -وفقه الله والسامعين- يقرأ لنا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[المزمل:١] ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[المزمل:٢] ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[المزمل:٣] ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[المزمل:٤] ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥] ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[المزمل:٦] ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[المزمل:٧].

في هذه السورة المكية التي هي من أوائل سور القرآن نزولًا يخاطب الله -عزَّ وجلَّ- نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مناديًا له: يا أيها المتغطي بثيابه ولحافه، المضطجع على فراشه فرَقًا وخوفًا على نفسه؛ حيث جاءه جبريل -عليه السلام- وهو يتعبد في غار حراء، فقال: «اقْرَأْ، فَقَالَ لَه النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ: فَقُلتُ: ما أَنَا بقَارِئٍ»، فأخذه جبريل -عليه السلام-، فغطه وضمه ضمًا شديدًا حتى بلغ منه الجهْد مبلغه، ثم أطلقه، فقال: «اقْرَأْ، فَقَالَ لَه النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ: ما أَنَا بقَارِئٍ»، فأخذه جبريل -عليه السلام- فضمه الثانية، حتى بلغ منه الجهد مبلغه، ثم أرسله، فقال جبريل -عليه السلام-: «اقْرَأْ، فَقَالَ له: ما أَنَا بقَارِئٍ»، فأخذه جبريل -عليه السلام- فضمه ضمة شديدة هي

الثالثة حتى بلغ منه الجهْد مبلغه، ثم أرسله، فقال: «﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١] ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق:٢] ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾[العلق:٣]»، فرجع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بهذه الآيات يرجف ويتحرك قلبه، وتتحرك العضلة ما بين منكبه وعاتقه من شدة الفزع والخوف؛ «حتَّىٰ دَخَلَ علَىٰ خَدِيجَةَ -رضي الله عنها-، فَقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، أي: غطوني بثيابي، ولفوني بها، «فَزَمَّلُوهُ حتَّىٰ ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، فَقالَ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم: أي خَدِيجَةُ، ما لي؟»، ما الذي حصل لي؟ ما هذا الشيء الذي أصابني، «وأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وقالَ: قدْ خَشِيتُ علَىٰ نَفْسِي»، من الموت أو شدة المرض من الرعب والخوف الذي أصابني، من هول ما أصابني، فقالت -رضي الله عنها وأرضاها- ثابتةً: «كَلَّا، وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتقْرِي الضَّيْفَ وَتُعَيِّنُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ ثُمَّ انْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتَّىٰ أَتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أَسَدِ بنِ عبدِ العُزَّىٰ بنِ قُصَيٍّ، وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ؛ أَخُو أبِيهَا، وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بالعَرَبِيَّةِ مِنَ الإنْجِيلِ ما شَاءَ اللهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شَيْخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فَقالَتْ له خَدِيجَةُ: أي ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فَقالَ ورَقَةُ: ابْنَ أخِي، مَاذَا تَرَىٰ؟ فأخْبَرَهُ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ ما رَأَىٰ، فَقالَ ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ»، أي: جبريل -عليه السلام-، «الذي أُنْزِلَ علَىٰ مُوسَىٰ».

وفتر الوحي بعد ذلك فترة؛ ليتشوق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم للوحي، فحزن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فخاطبه الله بهذا الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[المزمل:١]، يا أيها الملتحف بلحافك، الملتف بثيابك، المضطجع على فراشك ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، ناصبًا لربك، مستعينًا بصلاة الليل الذي ينزل فيه الله -سبحانه وتعالى- للسماء الدنيا، وحيث يسكن الناس، وينام الناس، وتهدأ النفوس، فيكون أمكن في الإخلاص، وأجمع للقلب.

وخفف عنه -سبحانه وتعالى-؛ رحمة به، فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، ما قال: قم الليل؛ قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وبيَّن له حد هذا القليل الذي يرتاح فيه بأنه نصف الليل بحيث يقوم نصفه ويرتاح نصفه، ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقص من النصف قليلًا؛ بحيث يرتاح ثلثه، ويقوم ثلثي الليل، أو زد على النصف قليلًا بحيث يرتاح ثلثيه ويقوم ثلثه.

وفي هذا القيام إن قمت من الليل فأطل قراءة القرآن قانتًا لربك، متأنيًا، مسترسلًا، معطيًا كل حرف حقه، فإن ذلك أعون على الانتفاع بالقرآن وتدبره. وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم يقرأ في صلاة الليل مترسلًا مدًا يقف عند رأس كل آية؛ حتى تكون السورة أطول من السورة التي هي أطول منها.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ في وقعه عليك ثقيل، حتى «كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً»، كما عند مسلم في الصحيح، وحتى «كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَيَنْقَطِعُ، وَقَدْ تَفَصَّدَ جَبِينُهُ وَسَالَ عَرَقًا»، كما عند الشيخين، وكذلك هو ثقيل من جهة ما فيه من الأوامر والنواهي والحدود، وكذلك هو ثقيل من جهة العمل به؛ فكم من حافظ للقرآن يثقل عليه أن يعمل به، يتلو حروفه متقنًا، لكنه لا يكاد يعمل به إلا قليلًا. وكذلك هو ثقيل في الميزان يوم القيامة.

فاستعن على ما يصيبك من ثقل ما يوحى إليك بقيام الليل، وعظِّم هذا القرآن بترتيله، فإنما ينشئه الإنسان في الليل من الصلاة، هي أشد في تواطؤ اللسان والقلب عند التلاوة، وأعون على التدبر والانتفاع بالقرآن، وأثبت في الخير، وأقوى في الحفظ، وأصوب في القيل من جهة تدبره وفقهه وحفظه، وأرجى لإجابة الدعاء.

فخذ من الليل حظًا تتقرب فيه لربك، فإن لك في النهار سعة وفراغًا لمشاغل الدنيا، وقضاء حوائجك، ولكون النهار محل شغل فالتدبر فيه أقل، والإقبال فيه على العبادة أنقص، فاجعل لنفسك حظًا عظيمًا من الليل، وقد فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم والصحابة ذلك. ثم نقرأ ما سطره الإمام السعدي -رحمه الله عزَّ وجلَّ- ونعلِّق عليه.

(المتن)

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين-:

المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر.

(الشرح)

المزمل أصله: المتزمل، من التزميل.

والتزميل هو: التلفيف.

والتزمل هو: الالتفاف.

وقيل: إن التزميل هو التحميل، والتزمل هو التحمل.

ف﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي: يا أيها الملتف بثيابك، المتغطي بلحافك، وهو كالمدثر في المعنى كما قال الشيخ.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وهذا الوصف حصل من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه.

(الشرح)

ففزع صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وخاف على نفسه؛ خاف على نفسه أن يموت أو يصاب بمرض دائم شديد من هول ما رأى عندما جاءه جبريل -عليه السلام-.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فرأىٰ أمرًا لم ير مثله، ولا يقدر علىٰ الثبات له إلا المرسلون، عند ذلك انزعاج حين رأىٰ جبريل عليه السلام، فأتىٰ إلىٰ أهله، فقال: " زملوني زملوني " وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: " اقرأ " فقال: " ما أنا بقارئ " فغطه حتىٰ بلغ منه الجهد.

(الشرح)

(فغطه)، أي: ضمه ضمة شديدة، ضمه إلى صدره ضمة شديدة.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فغطه حتىٰ بلغ منه الجهد.

(الشرح)

(**الجَهد**) هو: المشقة، حتى شق ذلك عليه.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وهو يعالجه علىٰ القراءة، فقرأ صلىٰ الله عليه وسلم.

(الشرح)

وقد ثبت هذا في الصحيحين، هذا الذي ذكره الشيخ ثبت في الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ثم ألقىٰ الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتىٰ بلغ مبلغًا ما بلغه أحد من المرسلين. فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها.

(الشرح)

وقد قال العلماء: إن هذا من سنة الله في الدعاة؛ أن الداعية في بداتية دعوته يلاقي شدة، يلاقي شدة في طلب العلم؛ لأنه لا دعوة إلا بعلم، ومن دعى إلى الله بغير علم يحتاج أن يدعى هو، وأن يُبين له، فلا دعوة إلى الله إلا بعلم، ولا يحصل العلم إلا بتعب.

من أراد أن يحصل العلم بلا تعب فليقصر على نفسه الأمر ولا يطلب العلم، العلم لا يناله كسول ولا عجوز ولا متكبر.

ثم يلاقي شدة عند دعوة الناس، فإن الناس أعداءٌ لمن خالف ما ألفوه، واعتادوه، فإذا دعاهم إلى غيره وهو الحق عادوه، ونالوا منه، وسبوه، وشتموه، ثم إن ثبت وصبر فإن العاقبة له بوعد الله، قد يرى العاقبة وهو في الدنيا، وقد تكون العاقبة لدعوته بعد أن يموت، ويرى الخير عند ربه -سبحانه وتعالى-.

فعلى طلبة العلم والدعاة: أن يستعينوا بالله، وأن يصبروا، وأن يحتسبوا، وأن يبذلوا ما يستطيعون لتحصيل العلم، وما يستطيعون لدعوة الناس إلى التوحيد والسنة والعبادات الصحيحة.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

(الشرح)

وقيل المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، أي: يا أيها الملتف بثيسابك استعدادًا للصلاة.

وقيل المعنى: يا أيها النائم المتغطي بلحافه ﴿قُمِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، أي: يا أيها المتغطي بلحافه نائمًا ﴿قُمِ﴾.

وقيل المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾: يا من حُمِّلت الرسالة من التزميل بمعنى التحميل، يقال: زمَل الشيء إذا حمله.

لماذا ناداه الله هنا بقوله -سبحانه-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، ما قال: يا أيها النبي، يا أيها الرسول؛ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟

قال العلماء:

لهذا سبب وفائدة:

أما السبب فهو: أن النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم ما كان قام بشيء من النبوة والرسالة.

وأما الفائدة: فقالوا هنا فائدتان:

الفائدة الأولى: الملاطفة وعدم العتب.

الملاطفة وترك المعاتبة من عادة العرب إذا فعل الإنسان شيئًا، وأرادوا تسكين روعه، وعدم معاتبته وصفوه بشيء من حاله، كما حصل مع علي -رضي الله عنه- عندما غضب مع فاطمة -رضي الله عنها-، فذهب ونام في المسجد، فالتصق التراب به، فجاء النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم ليوقظه، وقال: «قُمْ أَبَا تُرَاب»، لأن حاله هكذا لصق فيه التراب، أراد النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم أن يسكن روعه، وأن يشعره بأنه لن يعاتبه، وهذا من عادة العرب.

وأُثر عن علي -رضي الله عنه- أنه يقول: «**هذا من أحب الكُنَىٰ إلىٰ قلبي؛ يَا أبا تُراب**».

والفائدة الثانية: إشعار كل متمزل بلحافه نائم في ليله أن الخير له أن يقوم الليل.

فصار الوصف كأنه نداء لكل مزمِّل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، نعم أصل الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، لكن لما كان بهذه الصفة صار كأنه ينادى كل مزمل ملتحف بلحافه، نائم على فراشه بهذا النداء، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؛ يا زيد، يا عمرو، يا خالدًا المزمل،﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر علىٰ أذية قومه، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلىٰ الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: {قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا}.

(الشرح)

قال -سبحانه-: ({قُمِ اللَّيْلَ})، و({قُمِ}) أمر، والأمر يقتضي الوجوب.

وهذا خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، **فيدل على: وجوب قيام الليل عليه** صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم **مخيرًا بين المنازل المذكورة في الآية:** أن يقوم نصف الليل. أو أنقص منه قليلًا. أو زيادة عليه قليلًا.

والقاعدة: أن خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم خطاب لأمته ما لم يقم دليل التخصيص، وهذا يدل على أن قيام الليل في أول الأمر كان فرضًا على الأمة، كان فرضًا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وعلى الأمة، وهذا أصح أقوال العلماء. ثم نُسخ الوجوب عن الأمة بالإجماع إلى الاستحباب.

وهل نسخ الوجوب عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم؟

قال جماعة من العلماء: نعم.

فصار قيام الليل في حق نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مستحبًا؛ بدليل قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[الإسراء:٧٩]، قالوا: ﴿نَافِلَةً﴾ هنا على وجهها، أي: غير فريضة.

ولقوله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم **في من سأله عن الصلاة لما ذكر له الصلوات الخمس:** «هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلاَّ أن تَطوَّع».

ولآخر آية في السورة معنا، وسيأتي الكلام عليها، وسأتكلم هناك عن وجه كونها ناسخة لوجوب قيام الليل.

ولأن النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم **لما قام الليل حتى تفطرت قدماه، فسئل:** «أَتَصْنَعُ هذا، وَقَدْ غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ، فَقالَ: أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، كما في الصحيحين.

ووجه الدلالة هنا: أنه ما قال: يا عائشة هذا فرض علي، فلو كان فرضًا عليه لقال: هذا فرض عليه، لكونه علل بكونه عبدًا شكورًا، فدل هذا على أن القيام لم يكن فرضًا عليه.

وقيل: إنما نُسخ الوجوب عن الأمة، وقد قلنا: هذا أمر مجمع عليه.

أما النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم فالقيام واجب عليه حتى مات صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم.

وقالوا: إن المقصود بالنافلة في قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[الإسراء:٧٩]: زيادة على أمتك، فالتهجد على أمتك مستحب، وأما عليك ففرض زيادة على الأمة، فخصه الله بهذا.

وروي في الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم **قال:** «ثَلاثٌ هنَّ عليَّ فَريضةٌ، وهنَّ لكم تَطوُّعٌ: الوترُ والنَّحرُ وصلاةُ الضُّحَىٰ»:

«الوترُ»: هذا وجه الشاهد، «والنَّحرُ وصلاةُ الضُّحَىٰ»، رواه أحمد، لكن إسناده ضعيف.

فالأقرب -والله أعلم-: أن القيام نُسِخ وجوبه حتى عن النبي صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم وإن كان القول ببقاء الوجوب على النبي قولًا قويًا.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ثم قدر ذلك فقال.

(الشرح)

(ثم قدر ذلك):

(ذلك) **ما هو؟ هل هو القيام أو القليل؟**

معلوم عندكم وتسمعون دائمًا: أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، ({إِلا قَلِيلا} {نِصْفَهُ})، **هذا الضمير هنا يعود إلى ماذا؟**

أقرب مذكور هو القليل، فيكون نصفه أي: نصف القليل.

فالضمير في ({نِصْفَهُ})، يعود إلى ({قَلِيلا})، فكأنه قال: وما القليل؟

فقال: ({نِصْفَهُ})، أي: نصف الليل.

أو يكون القليل: أن تنقص من النصف قليلًا.

أو يكون القليل: أن تزيد على النصف قليلًا.

فكان تقدير الكلام: قُم الليل إلا نصفه أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه.

قم الليل إلا نصفه، أو قم الليل إلا أقل من نصفه، أو قم الليل إلا أكثر من نصفه.

وقيل: إن الضمير في ({نِصْفَهُ})، يعود إلى الليل.

والقاعدة: إن الضمير يعود إلى أقرب مذكور؟

قالوا: لأن هنا تقديرًا؛ ({قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلا}): منه، ({نِصْفَهُ})، فالضمير في نصفه يعود إلى الضمير في قوله منه، أي: من الليل، فيكون المقدر هنا القيام في الليل؛ نصف الليل أو أقل من نصفه أو أكثر من نصفه.

فإن قيل: كيف يكون النصف قليلًا؟ على التقديرين كيف يكون النصف قليلًا وهذا يقتضي أن النصف الذي يقابله كثير، والمعلوم أن النصف مساوٍ، **كيف يكون أحد النصفين قليلًا، وأحدهما كثيرًا؟**

قال العلماء: هذا من جهة العمل والبركة وكثرة الحسنات؛ فالنصف الذي يكون فيه العمل وقيام الليل كثير بهذا الاعتبار، والنصف الذي تكون فيه الراحة قليل بهذا الاعتبار؛ بل وقت الراحة مهما طال فهو قليل بهذا الاعتبار، ووقت العمل وإن قصُر فهو كثير بهذا الاعتبار.

الإنسان وهو يعمل لله تحصل له بركة، ويحصل الحسنات، ويحصل الخيرات، فهذا الوقت الذي يعمل فيه لله هو في حقيقته كثير من جهة العمل.

والوقت الذي يكون الإنسان فيه فارغًا أو مرتاحًا هو قليل في الحقيقة ولو طال؛ لأن الإنسان لا يحصل فيه ما يحصل في الوقت الذي يعمل فيه.

انتبهوا لهذه القضية؛ فهي قضية مهمة: الكثرة والقلة هنا ليست باعتبار النصف والنصف، وإنما باعتبار العمل وكثرة الحسنات والبركة في الوقت.

(المتن)

قال -رحمه الله-: ثم قدر ذلك فقال: {نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ} أي: من النصف {قَلِيلا} بأن يكون الثلث ونحوه.

{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها. {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا} فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له.

(الشرح)

وهذا المطلوب في قراءة القرآن؛ إنما يُقرأ القرآن لينتفع به، ليتدبر، ليفهم، وهذا إنما يكون بترتيل القرآن، وترتيل القرآن يكون بالقراءة بترسل والوقوف عند رءوس الآي، وإعطاء كل حرف حقه ومستحقه، وهذا يعين على التفكر والتدبر. وتحسين الصوت غير المبالغ فيه هو من الترتيل.

أما تحسين الصوت حتى يكون هم القارئ الصوت وهم المستمع الصوت، فهذا ليس من ترتيل القرآن؛ بل ينافي المقصود من التدبر والتفكر والتأثر، والاستعداد للعمل بما في القرآن. على القارئ أن يحسِّن صوته من غير تكلف ومبالغة،أن يرتل القرآن، وعلى المستمع أن يكون همه أن يسمع كلام الله، أن يفهم كلام الله، أن يفهم كلام الله، أن يتدبر كلام الله.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فإنه قال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا} أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه.

(الشرح)

الثِقل هنا بمعنى: العظمة، فما فيه عظيم كبير كثير النفع.

وقيل: إنه ثقيل في ذاته عند إنزاله، وهذا كان يحصل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم.

وقيل: إنه ثقيل من جهة العمل به.

وقيل: ثقيل في بركته.

وقيل: ثقيل في الميزان يوم القيامة.

وقيل: ثقيلٌ أي ثابت كالجبال الثقيلة، ثابت محفوظ كالحبال الثقيلة.

وقيل: ثقيل على الكافرين والمنافقين؛ لأنه يقيم الحجة عليهم، وفيه الوعيد لهم. وكل المذكور صحيح؛ فالقرآن ثقيل بكل هذه الاعتبارات.

وقال بعض المفسرين: القول الثقيل هنا هو: إيجاب قيام الليل، يقولون: السياق يقتضي هذا؛ أن القول الثقيل هنا الذي ألقي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم هو: إيجاب قيام الليل، وهو أمر ثقيل أن يُعمل به على سبيل الوجوب. لكن الأول أولى؛ أي: أن المقصود بالقول هو القرآن.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} أي: الصلاة فيه بعد النوم.

(الشرح)

هذا أحد الأقوال في ({نَاشِئَةَ اللَّيْلِ})، هي: الصلاة فيه بعد النوم.

فمعنى نشأ: قام من النوم في الليل، قام مصليًا من النوم في الليل.

وقيل: ({نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}): ساعات الليل، فكل ساعات الليل ناشئة لليل، والليل معلوم أنه من بعد الغروب إلى طلوع الفجر.

وقيل: ({إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}) هنا: ساعات الليل من بعد العشاء إلى طلوع الفجر.

وقيل: ({إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}) هي: ما بين المغرب والعشاء؛ لأن الناشئة هي: ابتداء الشيء وأوله.

ولكن الأقرب -والله أعلم-: أن ({نَاشِئَةَ اللَّيْلِ})، هي: قيام الليل من بعد العشاء إى طلوع الفجر.

(المتن)

قال -رحمه الله-: {هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا}.

(الشرح)

({هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا}):

قيل: أشد مواطئة بين القلب واللسان.

مواطئة أي: اتفاق، موافقة بين القلب واللسان.

وقيل الوطء: الطمأنينة، ({أَشَدُّ وَطْئًا})، أي: أشد طمأنينة.

وقيل: أشد ثِقلًا، فلا يتحملها إلى مؤمن قوي الإيمان، قيام الليل أشد ثقلًا من بقية العبادات، فلا يتحملها إلا قوي الإيمان.

نعم قيام الليل وصلاة الفجر أشد ثقلًا من بقية العبادات، فلا يتحمل ذلك إلا قوي الإيمان.

فقالوا: معنى ({أَشَدُّ وَطْئًا})، أي: أقوى ثقلًا من بقية العبادات.

(المتن)

قال -رحمه الله-: {وَأَقْوَمُ قِيلا}.

(الشرح)

({وَأَقْوَمُ قِيلا}):

قيل: أصوب قيلًا من جهة فهم الكلام وتدبره. **وقيل:** أعجل في إجابة الدعاء.

(المتن)

قال -رحمه الله-: أي: أقرب إلىٰ تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ علىٰ القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود، ولهذا قال: {إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا} أي: ترددًا علىٰ حوائجك ومعاشك .

(الشرح)

فالسبح هنا على هذا المعنى بمعنى: السعي والحركة، فلك في النهار سبحٌ طويل، تسعى في حوائجك وتتحرك.

وقيل: ({سَبْحًا طَوِيلا})، أي: فراغًا طويلًا، فالسبح هنا بمعنى الفراغ.

وقيل: ({سَبْحًا طَوِيلا})، أي: متاعًا طويلًا، فالسبح هنا بمعنى المتاع.

وقيـــل: السبح هنا بمعنى النوم، فتستطيع أن تعوض في النهار ما فاتك من نوم في الليل، فتستطيع أن تعوض ما فاتك من نوم في الليل في النهار.

وكل المعاني صحيحة؛ النهار وقت للعمل وطلب المعاش، والحركة، ووقت لطلب المتاع، وقت للنوم عند التعب وهو: القيلولة، والنهار فيه شغل، والليل فيه سكون.

ولذلك العبادة في الليل أشد إخلاصًا، وأطمن للقلب، وأقرب للقبول.

أما النهار ففيه شواغل، فقد يقل الإخلاص لكثرة من يرى، وقد ينقص الإقبال على العبادة لكثرة الشواغل.

(المتن)

قال -رحمه الله-: أي: ترددًا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

الشيخ: ننتقل إلى المقطع الثاني.

قال الله -عزَّ وجلَّ-:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[المزمل:٨] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل:٩] ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[المزمل:١٠].

هنا يأمر الله -عزَّ وجلَّ- نبيه صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّم بأمور أخرى غير قيام الليل يستعين بها على ثقل ما حُمِّل، وهي: كثرة ذكر الله -عزَّ وجلَّ-، ولاسيما بأسمائه الحسنى؛ فإن لذكر الله عمومًا ولذكر الله بأسمائه الحسنة تأثيرًا في قوة القلب، وعلو الهمة، ورباطة الجأش.

وأيضًا كثرة دعائه -سبحانه- بها؛ بأسمائه، وأن ينقطع لله انقطاعًا في حوائجه، وعباداته، ودعوته، فاعلًا السبب، متوكلًا على الله -عزَّ وجلَّ-، ومخلصًا لله في عباداته كلها فإن ربه -سبحانه وتعالى- رب المشارق والمغارب الذي يسيرها ويبرها، ويصرفها -سبحانه وتعالى-.

والرب المنعم المدبر هو المستحق للعبادة، فلا معبود بحق إلا هو -سبحانه وتعالى-، فاعبده وتوكل عليه، وفوِّض بقلبك كل أمورك إليه.

ثم أمره -سبحانه- بأن يستعين بالصبر على ما يقوله الكفار المعاندون المخالفون، ويذمونه به، ويسبونه به، وأن لا يقابل فعلهم بمثله؛ بل يُعرض عنهم، ولا يلتفت إلى سبهم، ولا يجعل لكلامهم وزنًا مع ثباته على دعوته، لا يترك الحق من أجل سبهم، ولا يترك دعوتهم إلى الحق من أجل ذمهم، مع هجرهم هجرًا جميلًا.

والهجر الجميل هو: الهجر لله الذي يقتصر فيه على ما شرع الله، ولا يُعتدى فيه بأذى لم يأذن الله به.

فكل هجر لله لا أذى فيه لم يُؤذن به هو هجر جميل.

فالهجر الجميل هو: الهجر لله بالتزام حدود ما جعله الله للهجر، ولذلك يقولون: هو الهجر بلا أذى.

أي: هو الهجر با أذى فيه تعد لم يأذن الله به -عزَّ وجلَّ-.

ونقرأ كلام الشيخ.

(المتن)

قال -رحمه الله- في قوله -عزَّ وجلَّ-: {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} شامل لأنواع الذكر كلها.

(الشرح)

(**شامل لأنواع الذكر كلها**)، ويدخل في ذلك: الدعاء، كما أنه شامل للأسماء كله، فاسم ربك عام يعم الأسماء كلها.

(المتن)

قال -رحمه الله-: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا} أي: انقطع إليه، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

(الشرح)

أي: توكل على الله بقلبك، وافعل السبب؛ لأن الله قد جعله سببًا.

وقيل: ({وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا}): أخلص إلى الله إخلاصًا تامًا.

وقيل: ({وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا}): اجتهد في طاعة ربك.

(المتن)

قال -رحمه الله-: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب [كلها] ، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

(الشرح)

والرب هو: المستحق للعبادة؛ ولذلك قال الله:

(المتن)

قال -رحمه الله-: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ} أي: لا معبود إلا وجهه الأعلىٰ، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} أي: حافظا ومدبرا لأمورك كلها.

(الشرح)

({فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا})، أي: توكل عليه، واتخذه معينًا، ونصيرًا، وحافظًا لك ولكل ما تحب ومن تحب.

لعلنا نقف عند هذا، ونكمل -إن شاء الله- في الدرس التالي.

غدًا -إن شاء الله- ليس عندنا درس، ويوم الثلاثاء لن أجلس؛ لأني سأذهب إلى مكة -إن شاء الله-، ثم بعد ذلك سنجلس مجالس متتابعة -إن شاء الله- حتى نختم السور أو نختم الشهر أيهما كان أسبق.

نجيب على شيء من الأسئلة.

(الأسئلة)

السؤال: المعتكف هل يجوز له أن يطوف؟

الجواب: المعتكف في المسجد الحرام له أن يطوف متطوعًا، لكن من غير مخالفة للأنظمة، فما يفعله بعضهم من لبس الإحرام حتى يتمكن من الطواف وهو غير معتمر هذا لا يجوز، وحرام، مخالفة لولي الأمر حيث تجب طاعته، واعتداء على من هو أولى بالطواف وهم المحرمون، كما أنه تزوير وكذب، فالحال قد يُكذب بها، فهذا كذاب؛ يقول: أنا محرم، وليس بمحرم.

السؤال: المرأة التي تصلي في بيتها التراويح هل ينالها فضل قيام الليلة، أجر قيام الليلة؟

الجواب: صلاة التراويح الأفضل فيها عند جمهور الفقهاء -وهو الصواب- للرجال: أن تكون في المسجد على سنة المسلمين.

فإذا كانوا يصلون في أول الليل فالأفضل فيها: أن تصلي مع الإمام في أول الليل.

وإذا كانوا يصلون في آخر الليل فكذلك.

أما ما يفعله بعض إخواننا من كونهم يتنحون عن الإمام حتى إذا جاء نصف الليل أو ثلث الليل صلوا جماعة أوزاعًا قبل على الحال التي كانت قبل أن يُبطل عمر -رضي الله عنه- ذلك، ويجمع الناس على إمام واحد فهذا جائز، لكنه ليس الأفضل.

وإنما الأفضل: أن يصلي في المسجد جماعة على سنة المسلمين لا ينابذهم ولا يخالفهم.

وأما المرأة فلها أن تخرج إلى المسجد لصلاة التراويح غير متعطرة ولا متبرجة، **لكن الأفضل لها من حيث الأصل**:

أن تصلي التراويح في بيتها، وهذا أعظم لها أجرًا من أن تصلي مع الإمام حتى ينصرف. أعظم أجرًا للمرأة من أن تصلي مع الإمام حتى ينصرف: أن تصلي في بيتها.

لكن استثنى العلماء حالة، وهي: أنها إذا كانت إذا بقيت في بيتها تنشغل وينشغل قلبها لو صلت؛ فالأفضل: أن تصلي مع الإمام؛ لأن الأفضل هو ما يستطيع الإنسان أن يؤديه وما يقبل عليه بقلبه.

السؤال: هل من يتهاون عن تكبيرة الإحرام مع الإمام في القيام يفوته أجر قيام الليلة؟

الجواب: ظاهر الحديث: أن من قام بمعية إمامه من أول بدء الصلاة إلى التسليم من الوتر، فالذي يجلس من غير حاجة يظهر لي -والله أعلم- أنه يخرج عن هذا الفضل.

أما إذا كان لحاجة كأن كان متعبًا أو نحو ذلك، فنقول له: كبِّر مع الإمام وأنت جالس، ثم إذا ارتحت ونشطت قُم وأكمل مع الإمام.

لكن -مثلًا-: لو أن إنسانًا انتقض وضوؤه، فخرج ليتوضأ، ثم عاد وأكمل مع الإمام، **هل يفوته الفضل؟**

الجواب: لا؛ لأن هذا معذور، والمعذور لا يفوته ما رُتِّب عن العمل من فضل.

السؤال: قال لوالديه: زوجتي حرامٌ علي إذا دخلت بيتكم، ما الحكم؟

الجواب: هذا أساء مرتين:

المرة الأولى: أنه واجه والديه بهذا الخطاب الفظ الغليظ.

وللواجب على الولد مهما كان الموقف، ومهما كان حال الوالد أن يتلطف في عبارته، وأن لا يجرح قلب أبيه بكلمة أو قلب أمه بكلمة ولو ب "أف" حتى لو أغضبك أبوك، حتى لو كان غضبك لله لا يجوز أن تغلظ على أبيك أو أمك.

وهذا قد جمع مع الإغلاظ في القول الهجران لهما، وإرادة الهجران، وهذا لا يجوز؛ بل يجب أن يصاحبهما بالمعروف، ويدعوهما، وينصح لهما حتى لو دعياه إلى الشرك يصاحبهما في الدنيا معروفًا، وينصح لهما لعل الله أن ينقذهما مما هما فيه.

والأمر الثاني: أنه حرَّم امرأته وما ذنب امرأته؟! هذا من الحمق، إنما أعطيت العصمة لأن الأصل أنك رجل تحافظ على المرأة، أما تجعل المرأة ألعوبة عندك، امرأتي طالق إن ما أكلت عندي، امرأتي طالق إن ما فعلت، ما هذا صنيع الصالحين؛ يجب أن تحافظ على هذه المرأة، وأن تحفظ قيمتها، وأن تحفظ كرامتها.

وما قوله امرأتي حرامٌ علي إن دخلت بيتكم فإن أراد بهذا المنع فهذا التحريم يمين؛ عليه كفارة يمين، وإن أراد أنها حرام عليه كحرمة أمه فهذا ظهار. وإن أراد فراقها فهذا طلاق بحسب نيته عند القَولُ، أسأل الله أن يهديني وإياكم والمسلمين سواء السبيل.

والله -تعالى- أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.